عراقة العربية وطرق تمكينها عالمياً

ربى عادل هابيل

عراقةُ العربية تعني أصالتها وأنّها أقدمُ اللغات الحيَّة. اللغةُ العربيةُ، دونَ مُنازع، فاللغات عند البشر تعيش عادةً نحوَ قرنين من الزمان، وقَلَّما تُجاوز ذلك، بعدها تكون قد تَغيّرت أنظمتُها الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية كثيراً عن بدايتها. فاللغةُ الإنجليزية حاليًا مثلاً تختلف كثيرا عن الإنجليزية أيامَ شكسبير. أما اللغة العربية فإنها لغةٌ ضاربةٌ في أعماق التاريخ، ولهذا لا يُعرف عمرُها الحقيقيّ على وجه التحديد. فإذا ما حاولنا المقاربةَ نَجِدُ أنّ اللغة العربية تُمِدُّنا بشواهدَ فصيحة من الشعر قبل الإسلام بأكثرَ من قرن. ولكي تصلَ اللغةُ إلى هذا الحدِّ من الإبداع فلا بد أنها عاشت قرنًا أوأكثر قبل ذلك، وهويعني أن اللغةَ العربيةَ عمرُها حاليًا أكثر من سبعةَ عشرَ قرنًا يقينًا، ومن الباحثين مَن يعود بها إلى تاريخ أقدمَ من هذا بكثير. ويقينُنا أنها ستبقَى خالدةً إلى أن يَرِثَ الله الأرض ومَن عليها لارتباطها بالقرآن الكريم الذي وَعَدَ الله عز وجل بحفظه.

أصل العربية الفصحى:

يَدُلُّنا تقسيمُ العائلاتِ اللغوية على أن العربية تنتمي للقسم الجنوبي الغربي من عائلة لغوية اصطَلَح علماءُ اللغة حديثًا على تسميتها باللغات السامية، وهي مجموعة لغات تضم إلى جانب العربية عددًا من اللغات كالحَبَشِيَّة والعِبْرِية والفينيقية وغيرِها، فلها جميعًا خصائصُ لغوية متقاربة تَدلُّ على أنها تفرعتْ عن أصلٍ لغوي واحد. ثم تفرعت اللغة العربية قبلَ الإسلام بكثير إلى عدد من اللهجات. انتشرت في بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية، ومَن يقارن بين المفردات في اللغة التدمرية والآرامية والسريانية وبين العربية يستنتج أنهم لغة واحدة أوعلى الأقل من أصل لغوي واحد قد يكون هذا الأصل العربية، مثل:

١- كتيب: معناها كتابة وهي آرامية سريانية لفظا ومعنى لأن انتشار الكتابة عند الآراميين كان أسبق منه عند عرب الشمال(شمال شبه الجزيرة العربية) مهد العربية الحديثة.

٢- لا: لفظة تدمرية قديمة حرف نفي معناه: لا وهي كذلك في اللغتين العربية والسريانية لفظ ومعنى.

٣- لبرك شمة لعالمة: عبارة تدمرية تعني: الذي مبارك اسمه إلى الأبد. واللام عوضا عن الذي الموصولة.

٤- عجل: في التدمرية الثور. وفي العربية والسريانية تطلق على الصغير سناً من البقر.

٥- أسي، أسيّا: كلمتان تدمريتان معناهما الطبيب.

٦- أقدش، أقديش: كلمتان تدمريتان سريانتيان بمعنى قدس

٧- جد: تدمرية سريانية تعني الحظ كما في العربية

٨- كـ : الكاف معناها: مثل

٩- من كيسه: في التركيب التدمري والتدمرية لهجة آرامية، معناها: على نفقته

١٠- رحمنا: الرحمن في الآراميّة والسريانية ومعناهها: ذوالرحمة

١١- شنين: سنين

١٢- قام: قام بالأمر وهي مشتركة عربية وآرامية

١٣- صلم: تمثال ومن معانيها الصنم

١٤- مودا: مودة

١٥- سبرا: خبير ضليع

وإن مشترك اللغة العربية مع أسرة اللغات السامية- الحاميّة في كثير من الخصائص، هناك العديد من أوجه التشابه بين قواعد اللغات السامية وقواعد اللغات الحامية، ولعلّ المصرية القديمة تقدم خير دليل على التشابه القوي بين اللغتين حتى ذهب بعضهم إلى عدّ المصرية القديمة من اللغات السامية، ويعزوالعلماء التشابه اللغوي بينهما إلى انحدارها من أرومة مشتركة موطنها بلاد العرب وتاريخها يرجع إلى أكثر من عشر آلاف سنة، وقد أخذ اللغويون تناول الصلات بين العربية وبين كل من الفرعونية والأمازيغية على ضوء العربية الجنوبية. وبعد أكثر من دراسة قام بها اللغويون والمؤرخون والعلماء تبيّن أن الرأي الذي ذهب إليه

أن الفراعنة عرب قدماء ماهوالا حقيقة واقعة، وقد تبنى هذا الرأي العديد من علماء اللغة الألمان وشاركهم في رأيهم هذا الآثاري المصري الأول أحمد كمال. وقد أرجع أحمد كمال كل الكلمات المصرية القديمة (الفرعونية) إلى العربية، وقال: إن العنصرين الفرعوني والعربي يرجعان إلى أصل واحد ولغة واحدة وقد أظهر الاتحاد بينهما، وألّف قاموسا كبيرا أورد فيه ألوفاً من الكلمات الهيروغليفية الموافقة للعربية الحضرية في الغالب: إما موافقة تامة أوموافقة بضرب التحريف أوالقلب والإبدال المعهود مثله في اللغتين. ويرى أحمد كمال أن العربية أصل المصرية القديمة المدوّنة بالقلم الهيروغليفي. والآثاري المصري أحمد نجيب يقول في كتابه (الأثر الجليل) المطبوع سنة ١٨٩٥م (إن لتركيب لغتهم أي قدماء المصريين) مشابهة قوية بتركيب لغة أهل آسيا، وإن كثير من أصل لغتهم مشتق من العربية القديمة كما أن الضمائر المتصلة والمنفصلة في كلتا اللغتين أصلهما واحد). ويقول هارفي تروتر في كتابه النهج القويم: (لغة المصريين تجانس الحبشية في أصولها، وأما في الإعراب وتركيب الضمائر مع الكلمات فتجانس العربية) أما عن كلمة: هوري أوأوري: تعني رسم أونقش زينة تصوير. جليفو: لوح الطين اليابس، ومنها كلمة الجلف بالعربي وتعني لوح الطين اليابس.

ومن وجوه القرابة بين المصرية القديمة من جهة ومن العربية من جهة أخرى:

١- وجود الأحرف الحلقية: الهمزة والعين. وحرف الحاء والضاد
٢- أصول كلماتها ثلاثية
٣- تشابه الضمائر المتصلة
٤- الفعل المتعدي في كليهما يكون بتشديد عين الفعل مثل: قتّل، بعّد
٥- والعلاقة وثيقة من حيث تركيب اللغة: الفعل قبل الفاعل، ارتباط الصفة بالموصوف، استعمال تاء التأنيث، كاف الخطاب، ياء النسبة، نون الجمع،

بعض الألفاظ المتداخلة بين المصرية القديمة والعربية:

١- أبّ: تعني ورق الشجر أوزهره والكلمة عربية، وفي القرآن الكريم:(وفاكهة وأبّاً) وقد وجدت هذه الكلمة تَرِد في الأوغاريتية والعربية والمصرية بنفس المعنى.
٢- دجى: اسم الوطواط مأخوذ من العربية الدجى بمعنى الظلام والوطواط هوطائر الدجى
٣- عرّا: الأسد يقال في العربية عرهم، عارن، ومأواه العرين.
٤- ينكون: ينسون
٥- السبط: ابن الابن، أوابن البنت، ووجدت اللفظة في نصائح (بناح حتب) وعلى جدران مقبرة (أمست) بمعنى ما جاءت فيه بالعربية
٦- صهر: طبخ، أذاب
٧- أدس: اسم العدس
٨- زت: زيت

بعض الكلمات لاتزال حيّة مشتركة في بعض اللهجات الدراجة وعلى الأخص المصرية والسورية

١- امبو: اشرب، الماء، تستعمل للأطفال في مصر والشام
٢- واوا: وجع، ألم، تستعمل للأطفال في مصر والشام
٣- كخ: قذارة أيضا للأطفال
٤- رخ: نزل
٥- شأشأ: انبثق. شأشأ الضوء

إذاً العربية كانت حيّة من آلالاف السنين وما الآرامية والسريانية والفرعونية والعربية إلا لهجات للغة واحدة وعلى أغلب الظن هذه اللغة هي العربية لأننا لوأمعنا النظر في قواميس اللغات السامية والمصرية وأحصينا مفرداتها لوجدنا العربية من أغناها على الإطلاق بل تفوق مفردات اللغات السامية الأخرى مجتمعة. بل وتتفوق على أغنى اللغات في العالم لما تحويه على مفردات وألفاظ تشمل كل مستلزمات الحياة وتعبّر عن كل ما يجول في خاطر الإنسان.وكان الخيال العربي يتفنق عن أوصاف للطبيعة القاسية من حوله، وقلما يستطيع إنسان آخر أن يجاريه في ذلك مبتدئا بالرمال والخيام ليبدع بعد ذلك في وصف الحيوان. والعربية هي الوحيدة التي بقيت. وكل الحضارات التي قامت في بلاد الشام هي حضارات عربية منقسمة إلى مجتمعات عِدة، فكانت الخطوة الحضارية الأقوى هي اختراع الأبجدية من قبل الفينيقيين الذين يُعتبرون عرباً. فهم عرب عموريون سكنوا الساحل السوري في الألف الثاني قبل الميلاد. وأتوا أصلا من العماليق الجبابرة، وهم سكان منطقة الخليج العربي (البحرين وعُمان). حينما حصل الطوفان في الألف الخامس قبل الميلاد، انتشروا في بلدان عدة؛ واستقر الفينيقيون

على الساحل السوري. الفينيقيون: تسمية عربية تعني المترفين، المرفهين، المنعمين، المتمتعين، أصحاب العيش الرغيد. وفي اللغة القديمة السريانية والفينيقية كان فعل (فنّق يعني: نعّم) وفي القاموس المحيط نجد: (فنّق، فَنَقَ: نعَم) و(عيش مفانق: عيش رغد ناعم) و(الجواري الفنق) أي الجواري الناعمات. ومن أهم الدلائل على أن الفينقيين عرب وبالتالي لغتهم عربية غير تسميتهم أن المؤرخ العربي السوري كتب كتابه (تاريخ فينيقيا) في الألف الثاني قبل الميلاد أي قبل وجود أي إغريقي على وجه الأرض فإدعاء المستشرقين أن كلمة فينيق إغريقية تعني الحمر ادعاء باطل! وفينيق اسم ابن ملك صور (آجينور) أخوه (قدموس) الذي نقل الأبجدية وأختهم عروبة التي أعطت اسمها لقارة أوروبا. من خلال المقارنة بين اللغات الغربية والعربية يلاحظ أن مفردات عربيةً كثيرةً انتقلت إلى أوروبا وأثّرت بلغاتها من أيام الفينيقيين وكل هذا دليل قوي على عراقة العربية ومتانتها.

صُقلت العربية وتبلورت بلهجة فصيحة واحدة بعد الإسلام ونزول القرآن الذي كان ولازال سبباً قويّا وعموداً أساسياً في حفظها وأثبتت أنها أي العربية لا تزول بوجود القرآن، وهذا يطمئن عشّاق العربية على الدوام لأن القرآن سيبقى أبدياً، لكن هناك خوف من أن تصبح العربية قليلة الانتشار وتُحصر بفئة قليلة من المهتمين بالقرآن أوالعربية بحد ذاتها كلغة.

بلغت العربيةُ الفصحى حَدًّا مُذْهِلًا من الكمال على يد العرب قبل الإسلام، فكانوا بحقٍّ أمراءَ البَيانِ وفُرسانَ البلاغة. وفي أسواقِ العرب الجامعة، مثل عُكاظ، ومَجَنَّة، وذِي المَجاز؛ كانت الفصحى ترتدي أَبْهَى زِينَتِها على ألسنة الشعراء والخطباء. ولا يُعرف عن أمةٍ من الأمم أنها أقامت أسواقًا للتنافس في الشعر والأدب إلا عند العرب، فازدهرت اللغةُ ونَمَتْ، وأضحَتْ مقياسًا من مقاييس الشرف، فقد كان العرب في جاهليتهم يُطلقون لقب (الكامل) على مَن يجمع بين معرفة الكتابة ونَظْم الشعرِ وركوب الخيل!

وعندما أشرقَ نورُ الإسلام ونزل القرآن الكريم بلغة فصيحة، وأسلوب بلاغيٍّ فريد أَعْجَزَ الفصحاءَ وأَقْعَدَ البُلَغاءَ، وخَطا بالعربية الفصحى خُطُوات كبيرةً نَحْوَ الإبداع، فزادها بهاءً وجمالاً عبَّر عنه أحدُ زعماءِ كفّارِ قريش وأكثرهم علمًا بالفصحى شعرًا ونَثْرًا ، وهوالوليدُ بنُ المُغيرَة : واللهِ إنَّ له لَحَلَاوة ، وإنَّ عليه لَطَلَاوَة ، وإنَّ أَعْلَاه لَمُثْمِر، وإنَّ أسفلَه لَمُغْدِق، وإنه لَيَعْلُوولا يُعْلَى عليه. كما خلع القرآن على العربية حُلَّةَ الخُلُود، وذلك حين نَزَلَ قوله تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (سورة الحجر ٩/١٥) فضَمنتْ بذلك لغتُنا الجميلةُ البقاءَ حتى يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومَن عليها.

وليس عبَثا كون العربية لغة القرآن الكريم لما فيها من قوة بيان وفصاحة، لقد أعطت من تثقّف بها وغاص فيها طلاقة لسان لا يمكن لأي إنسان أن يصلَ لدقة التعبير كما يصل بها من يتكلم العربية لما لها من تسمية دقيقة لأي ظاهرة أوحالة أوشيء، مثلا: ساعات النهار عددها اثنا عشرة ساعة وهي كالتالي:

١- الشروق: وهو شروق الشمس.
٢- البكور: وهو أول الشئ والمعنى هنا أول النهار بعد الشروق.
٣- الغدوّة: وهي البكرة، أو ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس.
٤- الضحى: وهو ارتفاع النهار أوانتصاف النهارأو إذا برزت الشمس.
٥- الظهيرة أو الظهر: وهو الظهر ساعة الزوال والظهيرة حدّ انتصاف النهار.
٦- الهاجرة أوالهجير: وهو نصف النهار عند زوال الشمس مع الظهر أو من عند زوالها إلى العصر.
٧- الروّاح: وهو العشي أو من الزوال إلى الليل.
٨- الزوال: وهو الذهاب وزوال النهار وزوال الشمس عن كبد السماء.
٩- العصر: ورد فيه معاني كثيرة منها اليوم، الليله، العشي إلى احمرار الشمس، الغداة، الحبس.
١٠- القصر: وهوخلاف المدّ واختلاط الليل.
١١- الأصل ،الأصيل: والأصل هو أسفل الشئ والأصيل هوالموت والهلاك.
١٢- العشي: وهوآخر النهار. ولليل اثنا عشر اسماً فيكون لكل ساعة من الأربع والعشرين ساعة اسم
١- الغروب : وهو غروب الشمس أو تنحيها عن النهار أو ذهابها والغروب أول الليل.
٢- الشفق: بقية ضوء الشمس وحمرتها أول الليل
٣- الغسق: غسق الليل، أول ظلمته
٤- العتمة: وقت العشاء
٥- السدفة: اختلاط الضوء والظلمة معاً
٦- الفحمة: فحمة الليل أشد سواد أوله
٧- الزلة: تمام زوال ضوء النهار

٨- الزلفة: زلف الليل ساعات من أوله
٩- البهرة: منتصف الليل
١٠- السحر: آخر الليل قبيل الصبح
١١-الفجر: ضوء الصباح وهوحمرة الشمس في سواد الليل
١٢-الصبح : أول النهار

وكان للأبجدية العربية ورسمها ما للعربية من عراقة على مدى أجيال وقرون، لم تبلغ الصورة المكتوبة من العربية هذه المكانة التي بلغتها الصورة المنطوقة؛ لأن العرب قبل الإسلام لم يكونوا أهل علم أوحضارة، فلم يكونوا يحتاجون للكتابة إلاّ في أغراض محدودة أهمها العقودُ التجارية. وهذا الخطُّ العربيّ يعود في أصوله – على أرجح النظريات – إلى الخطِّ النَّبَطِيِّ، الذي كان يكتب به أقوامٌ من ذوي الأصول العربية سَكَنُوا شَرْقِيَّ البحرِ المتوسط قبل الميلاد، وتأثَّروا بالخطِّ الآراميّ، وأدخلوا عليه بعض التعديلات حتى صار لهم خَطٌّ مُمَيَّزٌ خاصٌّ بهم أخذه عنهم القلةُ القليلةُ التي كانت تعرف الكتابة من العرب. فلما جاء الإسلام خَطا باللغة المكتوبة خُطُوات واسعةً، وانتشرت الكتابةُ انتشارًا كبيرًا بين العرب الذين دخلوا الإسلام. وأدخل علماءُ العربية تعديلات مُهِمَّةً على الخطِّ المكتوب، أبرزُها جهودُ أبي الأسود الدؤلي، والإضافات المهمة لعبقريِّ العربيةِ الخليلِ بنِ أحمدَ الفراهيدي، ونصرِ بنِ عاصم، وغيرهما. وكُتب بذلك الخطُّ عَبْرَ تلك القرونِ المتطاولة تُرَاثٌ نفخر به كعرب، تراثٌ هائل لا يُجاريه أيُّ تراث كُتب بلغة أخرى، فقد حَفِظَ الحضاراتِ البشريةَ السابقة، وأضاف إليها من عُصارةِ فِكْرِه وعقله مبادئَ وقِيمًا علمية وإنسانيةً أتحفت البشريةَ وظلتْ نِبْراسًا لها قُرونًا مُتطاولة.

وكما انتشرت العربية شرقاً وغرباً، وسادت العربيةُ وحَلَّتْ محلَّ اليونانيةِ والقبطية والسريانية قبل أن ينقضي القرن الأول الهجري. فلما بلغت القرنَ الثالث دخلت العربيةُ الكنائسَ القبطية، وكُتب بها الإنجيل، وأصبح القساوسةُ مضطرين اضطراراً إلى أن يجعلوها لغة الوعظ داخل الكنائس، وسارعوا إلى نقل ما استطاعوا من الكتابات القبطية واليونانية إلى العربية قبل أن تندثر. هذا عدا انتشار العربية في كافة البلدان التي دخلها الإسلام خاصة في الهند وتركستان على حدود الصين شرقًا، وتركيا وما جاورها غربًا. كما انتشرت في الحبشة وما جاورها (الصومال وإريتريا وإثيوبيا حالياً)، وتوسعت فيما بعدُ حتى شملت شمالَ القارة الإفريقية بأكمله.

كما كان لها تأثير على لغات أوروبا من أيام الفينيقيين لذلك صارت العربية مفتاح اللغات ومن يعود لقواعد تأصيل اللغات يكتشف كثير من الكلمات في اللغات الاوروربية أصله عربي، ومن قواعد التأصيل: مقابلة الألفاظ بعضها ببعض وهذه المقابلة مبنية على قواعد ثابتة رصينة يُعمل بها كلما حاول الباحث معارضة لفظة بلفظة

- قد يجيء الحرف العليل العربي بصورة مختلفة في الأوروبية فإن الواومثلاً: تَرِد بصورة (v،u،b،f) تبعا للأحوال التي تطرأ، ومن أشد الحروف العربية تقلباً في اللغات الأوروبية هي حروف الحلق، إذ لاوجود لها في لغاتهم فأخذوا أقرب الحروف إليها، فكلمة حواء: نُقلت بصورة مختلفة heva ثم eva ثم eve فإن الحاء قلبت (H) ولواوقلبت (V)
- إن لكل كلمة لاتينية أوإغريقية أحادية الهجاء أوثنائية، مقابلا لها في العربية وقد تكون اللفظة ميتة في العربية وحيّة في اللاتينية، أوحيّة في اللغتين. مثل الفعل، ١- زرع: يضارعه في اللاتينية Sero. اللاتين والرومان يكرهون الزاي أوz في أول اللفظ لهذا لانرى كلمة لاتينية بحتة تبدأ بهذا الحرف. والزراعة عُرفت في بلاد الشام وانتقلت منها إليهم. ٢- الفعل رعى: بمعنى دبّر وساس وقاد إلى المرعى، اللاتين نقلوها إلى لغتهم بصورة rego وقد حوّلوا العين إلى G لعدم وجود حرف حلقي يقابل العين قلبوه G فقد سمّوا عمّورة: GOMMORRAH وهناك مئات الألفاظ حوّلوا فيها العين إلى G
- ومن وسائل الاهتداء إلى معرفة أصل الكلمة اليونانية أواللاتينية أن تعمد إلى حذف آخر الكلمة من علامة الإعراب، أوما وقع موقعها ثم تُروى فيما يمكن أن يقابل اللفظة من الكلم العربي؛ فكلمة: Habere وبالفرنسية Avoir والانكليزية To have من أصل عربي هو(حوى) أما كيف اهتدى الباحث إلى أصلها العدناني، نحذف الحرفين الأخيرين من Habere وهما re)) بقي منها Habe)) ولما كانت الواوبالعربية تصور بالباء، والحاء (H) برز لنا الفعل حوى وهوالأصل اللاتيني الذي تفرعت عنه الانكليزية والفرنسية.
- الأداة كم: باللاتينيّة (cum) تدل على الجمع والملء، وكم بالعربية تدل على الجمع والملء وهي مركبة مثل: كمتر السقاء: ملأه؛ كمثر الشيء: اجتمع؛

كمز الشيء: جمعه بيديه حتى يستدير؛ كمهل المال: جمعه.

ومن اللغات التي أثّرت العربية بها تأثيرا واضحا بيّناً هي اللغة المالطية حتى ليظن الدارس أن هذه اللغة عربية . سبق العربَ في حكم مالطا اليونان وظلّ سلطانهم ٣٣٧ عاماً وجاء العربُ فبقوا ٢٢٠ عاماً، ثم النورمانيدون ١٠٤عاماً فالألمان ٧٢ عاما ثم الاسبان ٢٤٦عاماً فالفرسان ٢٦٨عاما، فمدة حكم العرب ليست أطول من غيرها ومع ذلك قد خلّفوا أثراً محا ما سبقه ولم يتأثر بما بعده، وظلّ المالطيون يتكلمون العربية إلى اليوم فنسبة العربية في كلماتها تقرب ٩٠٪ أما المستحدثات أغلبها إيطالية؛ أمثلة من اللغة المالطية

- الكلمات: ١- بالعربية: الخبز، المالطية: حبز. ٢- بالعربية: النبيذ: المالطية: إمبيت. ٣- العربية: الحليب، المالطية: الحليب. ٤- العربية: الخل: المالطية: الحل، بالعربية: الزيت ومثلها في المالطية. ٥- بالعربية المرأة، بالمالطية: المرا. ٦- بالعربية: السكر، بالمالطية: الزوكر. ٧- بالعربية: الطفل، بالمالطية: الطفل. ٨- بالعربية: الفرّان، بالمالطية: تاع الحبز. ٩- بالعربية: السكينة، بالمالطية:سكينه. بالعربية: الماء، بالمالطية: إلما
- التراكيب: ١- بالعربية: الثلاثاء القادم، بالمالطية: الثلاثاء الجايين. ٢- بالعربية: الأربعاء الماضي، بالمالطية: الأربعاء اللي عدّو. ٣- بالعربية كل يوم خميس، بالمالطية: كل نهار تاع خميس. ٤- بالعربية: اليوم الجمعة، بالمالطية: اللوم الجمعة.
- الجمل: بالعربية: ١- ماذا بك؟ المالطية: شي تحس؟. ٢- بالعربية:ليس عندي سوى واحدة! بالمالطية: ماعنديش حلاف واحدة. ٣- بالعربية: كم واحدة؟ بالمالطية: كِم هِم؟ ٤- بالعربية: لاتتكلم بسرعة هكذا. بالمالطية: تتكلمش هيك معجل. ٥- بالعربية: أحب التعلم. بالمالطية: نشتاق نتعلم. ما ورد يقارب المالطية من اللهجات العربية المغربية وخاصّة التونسية.

كما انتشرت العربية هذا الانتشار انتشر الحرف العربي بعراقته وجماله؛ فقد استحسنتْ كثيرٌ من الشعوب والأمم كتابةَ لغاتها بالحروف العربية ، تلك الحروف التي كُتب بها القرآن الكريم ، فانتشر الخطُّ العربي في آسيا وإفريقيا وأوروبا، ونشأت أنواعٌ عديدة من الخطوط المُجوَّدة، حتى صار الخطُّ في ذاته فنًّا يُضارِع أجملَ اللوحات جمالاً وبهاءً: تَتزيَّنُ به الجدران وتكاد تَنْطِقُ به الصفحات. ومن اللغات التي اعتمدت الحرف العربي في الكتابة:

أولاً: اللغات التركية:

وأشهر فروعها التي تكتب بالخط العربي : ١- التركية العثمانية. ٢- التركية القازانية. ٣- التركية القرمية. ٤- التترية النوجائية أوالمكارسية. ٥- التركية الآذرية(الأذربيجانية) أوالتركية الترنسقوقاسية. ٦- التركية الداغستانية. ٧- اللغة الجركسية. ٨- التركية الأنبورغية أوالتركية القرغيزية. ٩- التركية الجفتائية. ١٠- التركية التكية ١٢-اللغة الأوزكية. ١٣- اللغة الكشغرية

ثانياً: اللغات الهندية:

وأهم فروعها التي تكتب بالخط العربي: ١- اللغة الأردية. ٢- اللغة الدكنية. ٣- اللغة الكشميرية ٤- اللغة السندية. ٥- اللغة الجاتكية. ٦- اللغة الملاكية (الملقية) أولغة الملايو

ثالثاً: اللغات الفارسية

ومن فروعها التي تكتب بالخط العربي: ١- اللغة الفارسية ٢- اللغة الأفغانية وتسمى في "قندهار" (بشتوية) ، وفي "بيشاور" (بختوية) ٣- اللغة البلوشية (البلوخستانية) ٤- اللغة الكردية

رابعاً: اللغات الأفريقية:

ومن أشهر لغات الأفريقية التي تكتب بالخط العربي: ١- اللغة البربرية الشحلية ٢- اللغة البربرية الريفية ٣- اللغة النوبية ٤- اللغة الحوسية ٥- اللغة السواحلية ٦ - اللغة الملجاشية ٧ - اللغة الحبشية

وكثيراً ما استعمل الخط العربي استعمالاً زخرفياً بحتاً وقد كان الخط الكوفي مستعملاً منذ البداية للكتابة به في المساجد بمظهر بسيط: إما محفور حفراً عميقاً وحفراً ناتئاً ضخم الحروف ثم تطور نحوالرشاقة فطالت سيقان حروفه الرأسية وازدانت بالزخارف النباتية المتفرعة وقد كان الخط اللين النسخي يستخدم إلى جانب زميله الخط الكوفي. وفي أواخر القرن الرابع الهجري بدأ النحاتون المسلمون في إضافة ابتكارات جديدة. فأخرجوا الفروع النباتية من جسم الحروف الكوفية ، ثم أبدعوا

فظهرت الحروف محفورة على أرضية من أوراق الأزهار والفروع مما يسمى الكوفي المزهر. ومنذ القرن السادس الهجري عمّ استخدام الخط الثلثي وكان قبل ذلك لا يكاد يستعمل إلا في المخطوطات العادية فاستخدم في شواهد القبور والكتابات التأريخية واستعملت أشرطة كتابية على التحف المختلفة -وعلى العمائر والأسقف كما ابتكر الخطاطون عبارات بالخط الكوفي المربع لتزيين هذه التحف أوالآثار أوالعمائر. وقد لوحظ استخدام الآيات القرآنية الكريمة التي لها علاقة بطبيعة المكان فنجد في المحراب آية ١٤٤ سورة ٢ (قد نرى تقلب وجهك في السماء..) وفي السبيل آية ٥ سورة ٧٦ (إن الأبرار يشربون من كأس..) وعلى المآذن آية ٩ سورة ٦٢ (يا أيها الذين أمنوا إذا نودى للصلاة..) وعلى المنابر آية ٩ سورة ١٦ (إن الله يأمر بالعدل والإحسان...) وعلى أبواب المساجد آية ١٨ سورة ٩ (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر...) وهكذا كانت تستخدم بعض الآيات لخدمة طبيعة المكان وقد أطلقت كلمة الطراز على النصوص الخطية الموجودة على الآثار. ولاتزال آثار الخط العربي حاضرة جليّة في إسبانيا ومن يتأملها يحسبها لوحات والغير العارف بالعربية يُدهش عندما يعلم أن الزخارف المنقوشة على الجدران هي أحرف عربية.

مايحزّ في النفوس انحسار العربية بعد أن انتشرت في أصقاع المعمورة. وأسباب هذا الانحسار كثيرة يجب على المعنيين بالعربية أن يحيطوا بها ويعملوا على إزالتها، وأنّ أيَّ انحسار للعربية ليس بسبب قصورها وإنما بسبب قصور الناطقين بها وعدم اهتمامهم بها؛ ولضعف انتمائهم إليها. كانت ولاتزال الدعوات التغريبية لاستبدال الحرف العربي بالحرف اللاتيني مستمرة رغم قصور الحرف اللاتيني بالنسبة للعربية. والذي يتزعم هذا التوجه يُعدّ مخربا لا مجدداً وخصوصاً أن الحرف العربي متكامل مختصر. الحروف اللاتينية عددها أربعة وعشرون حرفاً ولا حاجة لعشرة منها في العربية للاستغناء عنها بأخواتها وهي: (z،p،u،x،v،g،q،y) فلا يبقى من الأبجدية اللاتينية إلا أربعة عشر حرفاً؛ والعربية ثمانية وعشرون، وعلى هذا يقتضي خلق أربع عشرة حرفاً جديداً. فرضاً إذا أردنا كتابة كلمة: محلقات باللاتينية لكُتبت: (Mouhallikaten) عددها ثلاثة عشر حرفاً وتُقرأ مهلكاتن ولإعادتها إلى معناها يجب أن توضع علامة للهاء والكاف للدلالة على أنهما (هـ، ق) فيكون الكتاب الذي سيؤلف بالأحرف اللاتينية يستهلك وقتا وعدد صفحات أكثر من الكتاب الذي يؤلّف بالأحرف العربية... والحجج لضحد فكرة الحروف اللاتينية للغة العربية كثير لا يسعني الحديث عنها كلها. وبسبب عدم التفكير الجدّي وعدم التخطيط على جميع الأصعدة لتمكينها باتت العربية مهددة رغم أنّها تعتبر ثروة يمكن الاستثمار بها لتشكل مجالاً للعائدات المالية والاقتصادية. لكن هذا يحتاج لإيمان أبنائها بها ووعيهم لأهميتها.

لابدّ من العمل على تمكينها دون أي تردد وذلك التمكين مسؤول عنه المعنيون بشكل صريح ومباشر، لأنها لغتهم الأم لما لها من خصائص تستطيع أن تكون لغة عالمية منتشرة في شمال الأرض ومغاربها... ومن المفارقات المؤلمة أننا أحيانا نرى الأجانب يهتمون بلغتنا أكثر منّا نحن العربَ؛ وهذا كله دليل على أهميتها التجارية والسياسية والتربوية والاقتصادية. فكان من الضروري التعاون العربي- العربي لتأليف مناهج عربية رصينة للناطقين بها وللناطقين بغيرها أيضاً. لهذه المناهج جدوى اقتصادية لا يستهان بها. ونشر معاهد تعليم العربية في مختلف الدول تفتتحها السفارات العربية لاستقطاب المتعلمين، وتمكين المدرسين وتدريبهم. كما أنّ لوزارات الإعلام والتربية والتعليم العالي والثقافة دورٌ كبير في حمل العربية على التوسع والانتشار. ولدُور النشر مسؤولية كبيرة، بتنشيط حركة الترجمة من العربية وإليها وهذا كله من ضمن الاستثمار في العربية .

تقوم اللغة بدورين اثنين من الناحية الاقتصادية، أولهما عندما ينظر إليها على أنها أداة في الاقتصاد وفي عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية للدول والأمم. إذ يعدُّ استعمال اللغة بمردود كبير وكفاية عالية أساساً لتحقيق النموالاقتصادي وضرورياً في عملية التنمية. وثانيهما عندما ينظر إليها على أنها صناعة وسلعة في القطاع الاقتصادي، إذ تزايد دور الصناعات الثقافية وقاعدتها اللغة الوطنية في الاقتصاد العالمي مؤخراً تزايداً كبيراً جداً. ومع تحول الاقتصاد العالمي أكثر فأكثر نحوالاعتماد على المعرفة تعاظمت قيمة الأصول غير المادية أوالأصول المعرفية وكبر دورها، واللغة وعاؤها، وما كان النموالاقتصادي لبلد ما ليحدث إلا لارتباطه ارتباطاً مباشراً بمستوى المعرفة وخاصة العلمية والتقانية لهذا البلد، وبمعدل نموهذا المستوى.

ومن هنا توجه الاهتمام إلى الاقتصاد غير المادي وقوامه اللغة لتحديد أهم معالم الاقتصاد الحديث بعد أن تأكد أن التنمية البشرية شرط أساسي للتنمية الاقتصادية، وأهم عناصر الاستثمار في التنمية البشرية هوالإنسان وخاصة معارفة التي تقوم على اللغة العلمية والتقانية. ثمة دراسة أجراها البنك الدولي ضمت في مجمل عينتها أكثر من ستين دولة وأكثر من ستين ألف جهة مختلفة، خلصت إلى أن حاجة الدول النامية إلى تحقيق النموالاقتصادي تكمن في رفع مستوى المعرفة لأفراد المجتمع لا في مساعدات إنسانية، وهذا ما لا يتم الحصول عليه إلا من خلال اللغة الأم.

وإذا كانت اللغة ينظر إليها على أنها سلعة ذات قيمة تبادلية تتزايد مبيعاتها في ظل الطلب المتنامي عليها، غير أن لها ميزة تختلف بها عن باقي السلع، وهي أن مخزونها أبداً لا ينفد. ولقد أكدت البحوث اللسانية والفلسفية وجود علاقة نفسية متينة بين المتكلم والكلام، وبين اللغة والفكر تداخل واتحاد. وأثبت علم اللسان أن ثمة علاقة بين العلامة اللغوية ومدلولها ومرجعها، وأن العمل في محيط اجتماعي ومادي متلائم مع العامل من الوجهة اللغوية يكون دون شك أكثر مردوداً، فإذا تعامل العامل مع آلة أوأداة يعرف أسماء مكوناتها بلغته الأم ومع مرافقين له في العمل ينطقون لغته نفسها يجعله ذلك كله في وضع نفسي سمته عمق الاتصال وتجاوز كل الحواجز العميقة الفاصلة بين المادة والتعامل ليصل بعدها إلى كنه العنصر المادي، وإذا هويجد ذاته في حال من التلاؤم مع من يتعامل معه فيكون نشاطه أشد، وفعله أجدى، وإنتاجه أكثر.

ويرى «سيمل» في مؤلفه «فلسفة النقود Philosophy of Money» أن «أفكاري يجب أن تتخذ شكل اللغة المفهومة لعموم الآخرين حتى أستطيع أن أحقق غاياتي العملية بهذه الطريقة غير المباشرة، وأن نشاطاتي وممتلكاتي يجب أن تتخذ شكل القيمة النقدية من أجل خدمة أغراضي الأبعد مدى.» وفي إشارته إلى الوظيفة الاجتماعية للنقود يركز على التشابه بين اللغة والنقود بوصفهما عاملين من عوامل تطور النظم الاجتماعية، ويشكل الاقتصاد النقدي واللغة المشتركة نقلة نوعية في التطور الاجتماعي من حيث إنهما ينشئان أشكالاً جديدة للعلاقات بين الأفراد، كما يفتحان إمكانات جديدة للمشاركة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

واللغة المشتركة في المجتمع هي بمنزلة الرصيد وتتجلى في أردية مختلفة: فالمواطنون المرتبطون معاً بمؤسسات اجتماعية أخرى مثل النقود والسوق يتكلمون الآن اللغة نفسها، أوعلى الأقل يسهل عليهم استعمالها، وما اللغة إلا نتاج للعمل الجماعي وثروة اجتماعية متراكمة، وتداول الألفاظ يشبه تداول السلع في السوق. وثمة كلمات معينة كالكلمات الوظيفية تقوم بوظائف السلع المتميزة التي يمكن أن نستبدل بها كل السلع الأخرى. والأحجار الكريمة مثال من أمثلة السلع المتميزة. وثمة تشابه بين الكلمة الجوفاء والورقة النقدية المنعدمة القيمة، وتشابه بين الكلام الجوهري والأحجار الكريمة ذات القيمة العالية. وإذا كان ثمة مستويات وأنواع للعملات ذهبية كانت أوفضية أونحاسية فإن ثمة مستويات للكلام الصادر من أفواه البشر. والكلمات مثلها مثل العملات المعدنية والورقية لا تستمد قيمتها ومعناها إلا من الاستعمال الذي يضعه لها هؤلاء الذين يستخدمونها وسيلة لتعاملاتهم، وكلا النقد واللغة تعوزه القيمة في الاستعمال ويكتسبه في التبادل، وهوما يطلق عليه الاقتصاديون القيمة الشرائية، ويطلق عليه اللغويون المعنى، وأن تغير معنى الكلمات في لغة ما يساوي تغير قيمة النقود في الدولة.

وتجدر الإشارة إلى أن للأمة رصيداً أوثروة نقدية، ولها أيضاً رصيد أوثروة لغوية، وكل من العملة واللغة تصك، ويعتنى بتنظيم صكها، ولا تترك دون تحكم ومتابعة من قبل الدولة، وتأتي قيمة النقد وكذلك قيمة اللغة من تداولها، فإذا أهملت الدولة التداول بعملتها أوبلغتها كالتعليم بغير اللغة الوطنية الأم، فإن لهذا آثاراً اقتصادية هائلة. وثمة قيمة وظيفية للنقد أوقيمة استعمالية، وتمثلها النقود الورقية، وكذلك هناك قيمة وظيفية للغة تمثلها لغة الحياة اليومية ولغة تبادل المعلومات اليومية من أجل وظائف الحياة العادية. وهناك من جهة أخرى قيمة سلعية للنقد تمثلها النقود الذهبية والفضية التي لها قيمة في ذاتها؛ إضافة إلى قيمتها الرمزية بصفتها نقداً. كذلك ديدن اللغة: فهناك معلومات علمية وتقانية لها قيمتها في ذاتها لما لها من قيمة إنتاجية، وهي سلعة في ذاتها لابد من دفع الذهب للحصول عليها.

- الاستثمار في اللغة العربية:

لما كانت اللغة العربية هي اللغة الوطنية الأم في البلدان العربية حسب

دساتيرها؛ كان الاستثمار في اللغة الوطنية يعني الاستثمار في توطين الصناعة والتجارة والتقنية والمعارف المختلفة، ولا يمكن أن يتحقق أي نجاح إلا بإتقان اللغة الوطنية وتوظيفها وتفعيلها في جميع المجالات. وغني عن البيان أن الاستثمار في اللغة الوطنية يعني الاستثمار في الإنسان والأجيال القادمة، وضمان وحدتها وتمسكها بقيمها وثوابتها ومكتسباتها ومرجعياتها وتاريخها، ومنحها الفرصة للمنافسة في جميع الميادين، مع حفاظها على هويتها. كما أن الاستثمار في اللغة يعني الاستثمار في الجودة والإتقان والإبداع والابتكار في كل ما يتعلق باللغة العربية من وظائف وأعمال تعتمد على المهارات والقدرات والتفكير. وإذا كانت العملة الوطنية من مقومات السيادة الوطنية، ولا يمكن أن تحل محلها عملة أجنبية فإن اللغة الوطنية هي من أهم أدوات تعزيز المواطنة. إذا وقفنا على توجيه رأس المال نحوالاستثمار في معالجة اللغة العربية فإننا نتوقع عائداً كبيراً للمستثمر نفسه وللغة أيضاً، وذلك للأسباب التالية: ١- قابلية هذه الاستثمارات للنمونظراً لاتساع سوق اللغة العربية في المنطقة العربية، وتزايد الطلب على برامج المعالجة اللغوية. ٢- تفاعل الثقافة العربية والإسلامية مع ثقافات العالم المختلفة عبر الشابكة (الإنترنت)، وتنامي رغبة المستخدم العربي في إثبات ذاته من خلال لغته العالمية، وإقبال غير العرب على برامج تعلمها. ٣- مرونة اللغة العربية وقدرتها على استيعاب التقنيات المختلفة لتعدد خصائصها وتفردها، مما يجعلها حقلاً خصباً للدراسات التنظيرية اللغوية بصفة عامة، مما يضمن رواجاً لها في حركة البيع والشراء عند الطلب وتنامياً في وسائل العرض.

أما مجالات الاستثمار في اللغة العربية فيمكن أن نشير إلى بعضها على سبيل المثال لا الحصر متمثلاً في:

١- تصنيف المعاجم للاستعمال العام. ٢- تصنيف معاجم المصطلحات في مجالات محددة. ٣- برامج معالجة النصوص. ٤- الترجمة الآلية. ٥- الذكاء الصناعي، وبخاصة إنشاء نظم المعلومات وبنوك المعلومات. تحسين الاتصال بين الإنسان والآلة أي تطويع لغات الحاسوب للغة العربية. ويؤيد الكاتب المصري أحمد بهاء الدين الدعوة إلى فكرته قائلاً: «كان من حظي أنني زرت كثيراً من البلدان الإفريقية، وعرفت فيها من الزعماء والكبار والحكام إلى باعة الفاكهة في الأسواق الفقيرة، ووصلت إلى مدينة تمبوكتوفي مالي. وقد عرفت معرفة شخصية التهافت الكبير لدى هذه الشعوب إلى العربية وإلى العروبة، وإلى معرفة لغة دينهم. كنت أسير في الأسواق فإذا عرف العامة أنني عربي قادم من مدينة الجامع الأزهر، أحاطوا بي لاحفاوة فقط، بل تبركاً، يمسحون ثيابي، ثم يمسحون وجوههم. فاللغة العربية لأنها لغة دينهم هي عندهم مقدسة، ومن يتكلمها كأنه من الأولياء الصالحين الذين يتبركون بهم. كنت أحياناً أهرب من الأسواق حين أشعر أن الرجال والنساء البسطاء يعاملونني وكأنني (ضريح متنقل) لا ينقصهم إلا أن يربطوا في عنقي وأطرافي أحجيتهم وأدعيتهم». تجدر الإشارة إلى أن ما ورد على لسان الكاتب المصري أحمد بهاء الدين يدل دلالة واضحة على قدسية العربية ومكانتها في كثير من البلدان الإفريقية. وتجد الإشارة إلى أنّ هذه البلدان كانت تتكلم العربية قبل عصر قريب، إلا أنها فقدتها بضغط استعماري مستمر وقوي.

إن مدينة (تمبوكتو) التي ذكرها الكاتب كانت عاصمة من عواصم الثقافة العربية الإسلامية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ولكنها فقدت هذا الدور الثقافي بفعل الاستعمار الثقافي الذي عمل على إبعاد العربية لغة رسمية وفرض لغته على أهل البلاد الأصليين.

في الختام أرى أن اللغة العربية قادرة على أن تكون لغة عالمية معاصرة، فمن أمعن النظر في العربية وقارنها باللغات الأخرى تملكه العجب من فصاحة مفرداتها وعذوبة ألفاظها وجزالة تراكيبها وقدرتها على التعبير والتوليد وقابليتها للنماء والتطور وحسبها أن تكون لغة القرآن الكريم بجلال معانيه وبلاغة مبانيه، وهوالذي زادها غنى، ووسّع لها في الأرض امتداداً وفي الزمن بقاء، ثم استطاعت أن تكون وعاء المعرفة البشرية قروناً متطاولة، ولايشك منصف في أنها قادرة على أن تكون لغة المستقبل بعلومه وفنونه محتفظة بعالميتها التي اكتسبتها منذ خمسة عشر قرنا إلى آخر الزمن. وقد أورد السيوطي في كتابه "المزهر في علوم اللغة وأنواعها" أن الخليل بن أحمد الفراهيدي ذكر في كتابه "العين": كلمات العربية عددها ١٢٣٠٥٤١٢. وعليه فإن العربية لا تضارعها لغة في العالم على الإطلاق.

المصادر والمراجع:

١- قراءة في لغة الكتابات التدمرية القديمة. بحث لغوي مقارن، يعقوب حنا: رئيس المركز الثقافي في المالكية، منشورات دار المعارف بحمص ط١ / عام ٢٠٠٣م

٢- سوريا نبع الحضارات، تاريخ وجغرافية أهم الآثار في السورية/ فاطمة جود الله. دار الحصاد للنشر والتوزيع___ط٢ عام ٢٠٠٤م

٣- اللغة العربية -القسم الرابع- اللغة الغربية واللغات الأخرى تحرير وتقديم محمد كامل الخطيب... قضايا وحوارات النهضة العربية منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية/ دمشق ٢٠٠٤م

٤- الخط العربي: موقع الوفاق

٥- موقع اليوم العالمي للغة العربية / د. أحمد طه رضوان

٦- الاستثمار في اللغة العربية ثروة قومية في عالم المعرفة/ أ. د. محمود أحمد السيّد

٧- المختار من المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي/الجزء الأول الذي اختاره وقدم له الدكتور شوقي المعري وطبع في مديرية إحياء ونشر التراث العربي بوزارة الثقافة -سورية (عام ٢٠٠٣)